دور المعتقدات الدينية في الحفاظ على الأمن الفكري والسلوكي للأفراد في المجتمع الجزائري

جفال نور الدين

قسم علم الاجتماع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة باجي مختار– عنابة

ملخص

إن للمعتقدات عموما تأثير كبير في أحوال الشعوب والأمم، وتتجلى أهميتها في كونها مصدر القوة للدول أو ضعفها، وتحقيق أمنها الفكري والسلوكي، والتحرر من أي نوع من الغزو في حال استخدامها بطريقة ايجابية. فالمجتمع مهما كانت مرجعيته الدينية، يحتاج إلى صمام روحي وعقائدي يضبط أمنه الفكري والممارساتي وخاصة في ظل الهزات الاجتماعية المتتالية، فتوظيف المعتقدات غير السليمة في الجزائر أدى إلى الفوضى والتطرف الفكري والسلوكي، وهذا ما لاحظناه في كثير من محطات التاريخ عموما، وفي العقد ما قبل الماضي خصوصا، وكان الخروج من هذه الفوضى واللاأمن بتوظيف العقائد الصحيحة والسليمة، الشيء الذي أدى إلى المصالحة والاستقرار وتحقيق الأمن الفكري والسلوكي للمجتمع.

الكلمات المفاتيح: السلوك، الأمن الفكري، المعتقدات الدينية، المجتمع.

Résumé

Cet article expose la problématique des croyances religieuses dans la société algérienne et montre son impact positif sur les conduites des individus et des groupes sociaux quand elle est épargnée des interprétations erronées et des pratiques extrémistes.

Mots clés : Le comportement, la sécurité idéologique, les croyances religieuses, la société.

Abstract

This paper aimed at identifying the importance of Religious beliefs and their role in society, and detecting the relation between the Religious beliefs and behavior security, ideological and contribution away from extremism and cultural pollution and false beliefs in Algerian society, this fact proves that the power of belief is the most important issue in human life.

Keywords: The behavior, the ideological security, religious beliefs, the society.

مقدمة:

كانت ولازالت المعتقدات الدينية ذات أهمية في حياتنا الدنيوية والدينية، وخاصة في تحقيق الأمن الذي هو مبتغى كل الأمم والدول. ففي ظل الأمن تهنأ الدول وتطمئن النفوس كما قال الله سبحانه وتعالى (**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**) (سورة قريش الآية 4). فالأمن نعمة لا يعرف قيمتها إلا من فقدها، والعقيدة الصحيحة تحافظ على الأمن الفكري والسلوكي الذي هو صمّام الأمان للمجتمعات، غير أنه في عصرنا اختلفت الأمور في ظل التطور الهائل في مجال الاتصالات، ووصول الثقافات والمعتقدات الأخرى كمجرى الماء واندماجها مع المعتقد المحلي، فنشأت من ذلك عقائد غير منسجمة مع مرجعية المجتمع، ويكون أمن هذا الأخير في مرمى التهديد، وينعكس ذلك على سلوكيات أفراد المجتمع.

وبفضل التطور الهائل في مجال الاتصال أصبحت الكرة الأرضية بأكملها عبارة عن قرية صغيرة، وبذلك يمكن ممارسة الهيمنة في شتى الميادين دون استثمار رجالات محليين، وضمان حلول الاختراق الثقافي والاجتماعي والتربوي والتعليمي والديني، فالاختراق يستهدف السيطرة على الإدراك من خلال وسائل حديثة للتأثير في الفكر العقائدي والسلوك، وبذلك تصبح المعتقدات الناتجة عن تصور خاطئ سببا في اللاأمن على كل الأصعدة الفكرية و السلوكية، مما يؤدي إلى الاضطرابات والانحرافات في تفكير وسلوك أفراد المجتمع بأسره.

1 . مفهوم المعتقدات: Credo conception

مفردها معتقد، من أصل فعل اعتقد الشيء، أي صلب واستتر، واعتقد كذا بقلبه، فالاعتقاد والمعتقدات هي تعاقد الناس على اعتبار قوة المؤثرة في حياتهم وسلوكهم وطرق تفكيرهم، وعندما يتمكن الدين من شعب ما، يتحول إلى طريقة تفكير وسلوك، بما يفرضه من عبادات ومعاملات، ليصبح معتقدا[1].

والعقيدة تطلق على كل فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة بصرف النظر عن صحة تلك الفكرة أو فسادها، ولذا هناك عقيدة صحيحة وعقائد فاسدة، أما العقيدة الصحيحة فهي المنزلة من الله تعالى على رسله، أما العقائد الفاسدة فهي التي كانت نتاج التفسيرات الخاطئة للبشر للرسالة الربانية، وقد يأتي فساد العقيدة من تحريفها أو تغييرها وتبديليها، وتعد الفكرة الكلية التي حددها الإسلام عن الكون والإنسان والحياة هي الفكرة الصحيحة المطابقة للواقع و الثابتة بالدليل العقلي الجازم، علما أنه لا تصل هذه الفكرة لدى الفرد إلى منزلة العقيدة إلا إذا آمن بها إيمانا ناشئا عن دليل عقلي جازم، ولذلك كانت العقيدة في الاصطلاح الشرعي الإسلامي هي الإيمان المطابق للواقع الثابت بالدليل العقلي، فالإيمان هو التصديق الجازم، وبه يخرج الشك والوهم والظن، ولذلك فإن العقيدة تنتفي إذا بنيت على الوهم والشك والظن[2].

2 . ماهية الأمن الفكري: Ideological security

quiddityلعب الفكر دورا هاما في حياة الإنسان منذ أن خلق، بل أنه كان السبب الذي تغيرت به حياته فأول عملية هامة وأخطر حركة تمت في الوجود كانت نتيجة فكر، فعن طريق التفكير من جراء وسوسة الشيطان بالخلود هبط آدم وحواء من جنة الله إلى الأرض[3]، و يرتكز الأمن الفكري في عصرنا على عنصرين أساسين هما:

أ . الأمن الفكري التربوي و التعليمي:

Didactic and educational ideological Security

لقد خلق الله عز وجل الإنسان وجعل فيه مجموعة متنوعة من أساليب التفكير و التعلم، ولم يكن ليترك هذه الأساليب بدون ضوابط تحكمه وتوجهه إلى المسار والهدف الذي خلق لأجله، وفي هذا الجانب ترتبط هذه الأساليب بالتربية والتعليم العقدي خصوصا، و نمط متكامل من الإرشادات والتوجيهات، التي ترسم للإنسان الطريق المستقيم الذي يقوده إلى العقيدة الصحيحة، وبالتالي تكون المعتقدات الدينية سبباً مباشراً في صلاح الفرد وتحقيق الأمن الفكري للمجتمع عموماً، فكلما كانت التربية العقائدية صحيحة في جوهرها ومضمونها حققت أمناً فكرياً متناسباً مع أمن المجتمع، فالعقيدة الإسلامية خصوصا تغرس المبادئ والقيم وتوجه الفرد في المجتمع، وينعكس ذلك في تحقيق الأمن الفكري والسلوكي معا، وهذا ما نستشفه في كثير من محطات التاريخ.

ب . الأمن الفكري الإعلامي:

ideological security Informatory

إن لوسائل الإعلام عقيدتها وأفكارها الخاصة، و منذ ظهورها أخذت في إبراز سمات الثقافة الفكرية، وسواء كانت هذه الثقافة دينية صحيحة أم لا، فنجد "**الدميري**" يقول: « لكل دولة من دول العالم عقيدة تعتقدها، ودين تدين به سواء كانت تلك العقيدة سماوية أم غير ذلك، وتدافع عنها. فالدين الرسمي لدولة إسلامية هو الإسلام وأكثر دول أوروبا تدين بالمسيحية، و لكل منها عقيدتها ووسائل إعلامها، لهذا فكل دولة تحافظ عليها وتدعو إليها»[4]، ولذلك تضيف"**إجلال خليفة**"إلى وظائف الإعلام والصحافة وظيفة دينية عقائدية، فتقول: «الهدف العقائدي أو الإيديولوجي من أحدث وسائل الصحافة، وهو وظيفة من أحدث وظائف الصحافة التي ترمي إليها وسائلها للاتصال بالجماهير، فوظيفة المحافظة على العقيدة يهتم بدراستها الباحثون في علم الإعلام والاتصال بالجماهير في وقتنا الحاضر، فالانتشار عقائد مذهبية وأيديولوجيات متباينة، وعدم اهتمام كثير من وسائل الإعلام بمهمة التفسير والتوضيح على أسس موضوعية علمية سليمة، لما ينشر من أخبار ولما يذاع من أفكار وآراء، الأمر الذي يساعد على إشاعة الغموض وبلبلة لأفكار، وبخاصة بين جماهير الشباب ومحدودي الثقافة والخبرات، فمهمة الصحافة هنا أن تفسر وأن توضح للشباب ما يجب أن تكون عليه حياته السياسية والأخلاقية واعتقاداته في شؤونه الأخرى »[5].

3. ماهية الأمن السلوكي والعقائدي:

quiddity Doctrinal and behavioral security

ونقصد بالأمن السلوكي هو المحافظة على هوية السلوك الإسلامي العقائدي و الممارساتي الذي أمر به الله سبحانه وتعالى، وأن تحقيق الأمن السلوكي للأفراد يدر على المجتمعات الرقي والتطور، ولا يمكن للأمن السلوكي أن يتحقق في ظل عدم وجود العقائد التي ترسم للإنسان الخطى صحيحة تنسجم مع فطرته، فلقد أثبتت الدارسات الانثربولوجية أن الإنسان بطبيعته الفطرية يحتاج إلى اعتقاد يعتقده بغض النظر عن فساد أو صلاح ذلك المعتقد، فأظهرت الدارسات الاثنوجرافية في الحقبات الأخيرة من القرن الماضي وبداية القرن الحالي، مثل الدارسات التي قام بها **Seligmen**، **Hadden**، **Cadrington** لسكان ماليزيا و **Kruigt**،**Keat**، **Blogdin**، لاندونيسيا، و **F Boas** للاسكيمو، حيث كشفت هذه الدارسات وغيرها على أن فكرة الألوهية **Divinity** كانت موجودة لدى الشعوب الوثنية التقليدية، وأن الوصول إلى فكرة الألوهية بمثابة استنتاج عقلي، ومن البداهة والفطرة أن العالم

قد خلقه كائن أعلى أي **Superior Being**، بالإضافة إلى الدارسة التي قام بها "**فرنسيس دنج**" على الدنكا، حيث ينظر هذا الشعب الدنكاوي إلى الجنس البشري على انه خاضع إلى قوة واحدة عليا لديه القدرة على الخلق والتدبير[6]، والواقع أن النزعة الدينية نزعة فطرية وهذا ما يؤكده الدين الإسلامي، فما من مولود يولد على الفطرة كما حدثنا رسونا عليه السلام وقد خلق الله سبحانه وتعالى عباده حنفاء يقول الله تعالى(**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**)(سورة الأعراف الآية 172)، فمنذ آدم عليه السلام وحتى اليوم لم يختفي الشعور الديني عن الإنسان أو عن أي مجتمع، غير أن الفطرة السلمية محتاجة إلى دعم خارجي من جانب البيئة الاجتماعية ومؤسسات التنشئة الاجتماعية، أي من جانب العملية التربوية وهي إحدى الضرورات الاجتماعية**Social imperative** أو إحدى المتطلبات الوظيفية **Functional prerequisites**، وتختلف هذه العملية التربوية من حيث الشكل والمضمون والأهداف باختلاف المجتمعات[7]. ونظرا لتلك الفطرة بعث الله الأنبياء ليكون السلوك نابعا من عقيدة سليمة صحيحة، توجه السلوك بشقيه الفطري والمكتسب، فالمعتقدات وبخاصة المعتقدات الإسلامية تترك آثارا في سلوك الفرد، فنجدها مثلا تربي في الإنسان يقظة الضمير والتحرر من الخوف والظلم والتخلص من الأنانية ...الخ، وبذلك فالعقيدة تساعد في تحقيق الأمن الفكري للأفراد الذي ينعكس بدوره على تحقيق الأمن السلوكي باعتبار السلوك نتاج للمعتقدات، فنكون أمام علاقة متعدية بين الأمن والسلوك والعقيدة (انظر مخطط 01)، فإذا غابت العقيدة عن حياتنا غاب معها الاستقرار النفسي مما يؤثر على سلوكياتنا، وبالتالي عدم تحقيق الأمن الاجتماعي عموما.

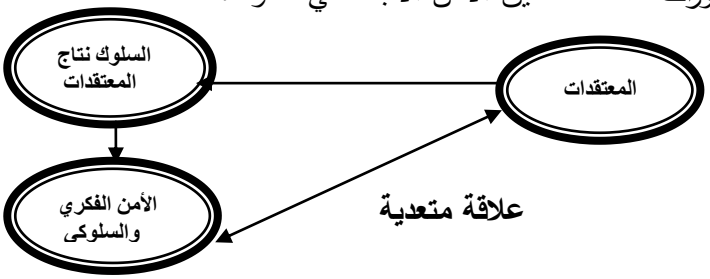

. مخطط (01) يبين العلاقة بين المعتقدات والسلوك والأمن .

ويوضح " **دوركايم**"**Emile Durkheim** أن للدين نسقا من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالمقدسات، وأن هذه المعتقدات والممارسات هي التي توحد بين الأفراد وتحقق بينهم نوعا من التكامل الأخلاقي في جماعة دينية معينة، وبذلك تتحقق المشاركة الجمعية في المعتقدات، التي تعد بدورها عاملا أساسيا في نمو الدين، غير أنه يرجع إلى أن الحياة الجمعية هي مصدر الدين، وهي تحدد موضوعه، وأن الوظيفة الأساسية للدين تتمثل في تحقيق التضامن الاجتماعي وتدعيمه والمحافظة عليه[8].

ويتقارب " **فيبر**" **Max weber** في رأيه مع "**دوركايم**" حيث يرى بأن العقائد الدينية تلعب دورا هاما في إحداث التغير الاجتماعي، ويؤكد ذلك

بتطور ونمو الرأسمالية نتيجة الأخلاق البروتستانتية التي تحث الناس على العمل والتفاني فيه، وقد أوضح " **فيبر**" العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية[9].

غير أن"**إميل دوركايم**" انطلق من فكرة دراسة كيفية عمل الدين في المجتمعات البدائية لأدراك سبل عمل المجتمع الإنساني عامة، في اللحظة التي يرنو فيها إلى عرض صورة مستقلة عن وعي الأفراد الذين يتكون منهم، حيث يدرس الدين كمثال يعبر عن كيفية تشكله وتبلوره في الزمن يتجاوز فيه الوعي الاجتماعي للأفراد والصورة التي يملكها المجتمع عن نفسه، ومن هذا الباب يساهم الدين في بناء الوعي الجمعي والحفاظ عليه[10].

ويتفق" **بنيامين كيد**" **Benjamine kidd** مع "**دوركايم**" في فكرة أن الدين يساهم في بناء الوعي الجمعي والحفاظ عليه، فيوضح" **كيد**" في كتابه (التطور الاجتماعي) الذي ألفه سنة 1894م، بأن العقل لا يمكن أن يكون السبب الأساسي في التقدم، وذلك لأنه يكسب الإنسان نزعة فردية غير اجتماعية، بينما التطور في جوهره اجتماعي يهدف لتحقيق المزيد من الترابط الاجتماعي، لذلك كانت القوة الوحيدة المؤثرة هي الدين، والذي يحاط بجزاءات فوق الطبيعية ويدعم الأخلاقيات الغيرية، فالدين هو الذي منع حدوث تفكك اجتماعي خلال القرون المسحية، وأن الدين هو الذي وحده سيسمح بوجود تقدم اجتماعي مستمر[11].

وبرغم من أن الكثير من الدارسين في علم الاجتماع والعلوم الدينية المحدثين يرون بخلاف "**إميل دوركايم**" أن العقيدة الدينية وممارساتها أكثر من مجرد نظام من الرمزية الاجتماعية والخلقية، إلا أن هذا لا ينفي أن الرمزية الجماعية يمكن أن تكون لها أهميتها الكبيرة في الإطارين العلماني والديني، وقد تبين ذلك بوضوح إسهامات "**إميل دوركايم**" الكبيرة[12].

4 . معتقدات المجتمع الجزائري قبل الفتح الإسلامي:

يرى "**يحي هويدي**" أن دين البربر، كان قبل نزول الأديان متأثرا بطريقة معيشتهم وبمناخ بلادهم، الذي كان كثيرا ما يفتقر إلى الأمطار وبخاصة في داخل البلاد، فامتلأ دين القوم بكثير من الطقوس والشعوذة والتعاويذ التي كانوا يرددونها لاستجلاب الأمطار، هذا إلى جانب اتساع الصحراء المحيطة بهم وخوفهم من أن يوغلوا فيها، فجعلهم يعتقدون وجود أرواح شريرة تشيع في المناطق التي تجاورهم، ومن ثم اختلط دينهم الوثني بالسحر، وامتلأ بالأدعية والحركات التي كانوا يظنون أن تأديتهم لها من شأنها أن ترفع عنهم هذه الأرواح الشريرة [13].

يقول "**ألفرد بل**" في كتابه الدين الإسلامي في البربر الذي يمثل دارسة تخطيطية في التاريخ والاجتماع الديني في نشأة الإسلام وتطوره في بلاد البربر من القرن السابع الميلادي إلى القرن العشرين[14] :«إن السمة الغالبة للتصورات الدينية عند سكان الشمال الإفريقي، اعتقادهم بأن العالم تشيع فيه أرواح خبيثة وطيبة تتشكل بأشكال متعددة، وبأن هذه الأرواح تطول إقامتها أو تقصر في أمكنة معينة، في الحجارة وفي الأشجار، في الحيوانات، في الكائنات البشرية، وهذا الاعتقاد شائع بين البدائيين، ويطلق عليه اليوم في علم الأديان إسم المذهب الحيوي، وأغلب الظن أن البربر في العصور الحديثة قد ورثوا هذا التصور الديني عن أجدادهم القدامى من الوثنيين».

ويلخص "**رينيه باسيه**" في مقاله الذي كتبه في مجلة تاريخ الأديان، تحت عنوان بحوث في الديانة البربرية، فيقول :« إن البربر عبدوا الصخور والجبال

والوديان والأنهار والمغارات المنتشرة في الجبال، وعبدوا الكواكب وأهمها الشمس، فرمزوا لها بشاة أحاطوا رقبتها بقرص يرمز إلى الشمس، فهذا المذهب الحيوي الذي يمثل الأساس العام في التصور الديني لشعوب الشمال الإفريقي، فتسرب إليهم على يد الفينيقيين أيام كانت إفريقيا تابعة لقرطاجنة قرابة ثمانية قرون حتى 146 ق.م، ثم تسربت اليهودية والمسيحية إلى الشمال الإفريقي في العصر الروماني (146ق.م .439 م)، وفي عهد الوندال الذي استمر قرابة قرن من الزمان (439م .533م)، ثم في العهد البيزنطي الذي استمر حتى الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي»[15].

وكان أهم شيء قدمه الإسلام الوافد الجديد لهذه الأقاليم وشعوبها ومنها الجزائر هو وحدة اللغة والعقيدة، التي دعمت وحدتها العرقية والجغرافية والتاريخية، وبفضل وحدة العقيدة هذه، انكب شعب الأقاليم على البناء والإبداع الحضاري في أوسع مجالاتهما، وفي جو من الحرية السياسية والبحبوحة الاقتصادية، فقامت بالأقاليم مراكز حضارية هامة، لا تقل مكانة ورقيا عن مراكز الشرق الإسلامي، مثل المسيلة وقلعة بني حماد و بجاية وتلمسان وقسنطينة، وقد أخصب فيها الفكر وتطورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأبدعوا في مجالات الحضارة[16].

5. معتقدات المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي :

قد يحتل الدين هنا وهناك مكانة مركزية، فهذا شيء بديهي لا يحتاج إلى نقاش، فقد كان يخلق في كل مكان المعنى ونظام القيم على الحياة، ولكنه كان يشكل أيضا وخصوصا المرجعية المشتركة، التي تخلق الشرعية أو المشروعية على التشكيلات السياسية والاجتماعية (أي على الدولة، ونظام العدالة والأسرة)، و باسم الكلام الإلهي كان عدد لا نهائي من رجال الدين يتكلفون بخدمة الشعائر وتطبيق العدالة، و باعتبار فرنسا البنت الكبرى للكنيسة، راحت تخوض معارك وتحتل بلدان لهذا الغرض[17].

ولقد كان الغزو الفرنسي للجزائر، عسكريا ودينيا وثقافيا واقتصاديا في آن واحد، عمل من أول يوم على شطب ما في الجزائر من مجد مشرق بجرة قلم، وطمس شخصيتها القومية والدينية الإسلامية بصفة كلية، وذلك بالقضاء النهائي على الدين الإسلامي والثقافة العربية، وإحلال الدين المسيحي واللغة والثقافة الفرنسية محلهما في إطار سياسة الإدماج والفرنسة والتنصير، وعلى هذا الأساس صادر جيش الاحتلال منذ السنة الأولى للاحتلال أملاك الأوقاف الإسلامية العقارية والمنقولة، واستولى على المساجد والزوايا وهدم الكثير منها، وحوَل الباقي إلى كنائس، وضايق العلماء ورجال الدين، فطرد منهم ونفاهم خارج البلاد، وقتل البعض وسجن آخرين ومنعهم من ممارسة أنشطتهم الدينية والثقافية، ولكن الشعب الجزائري، قاوم هذه السياسة بشدة، وعنف وأذوه بما لا يتصور في سبيل الحفاظ على الوجه العربي الإسلامي للبلاد [18].

6 . أثر "ابن باديس" في المحافظة على الأمن الفكري والسلوكي في المجتمع الجزائري:

لقد كان فكر "**ابن باديس**"*مستنيرا بفضل معتقداته الدينية وإيمانه الراسخ بوجوب المحافظة على الأمن الفكري والسلوكي للمجتمع الجزائري، فلقد أدرك أن المعتقد الصحيح هو صمام الأمان للمجتمع، وأنه لا يمكن المحافظة على الأمن الفكري والسلوكي للمجتمع الجزائري إلا بالمحافظة على العقيدة والقيم الصحيحة، فأخذ على عاتقه مسؤولية تعليم الأجيال وتربيتهم، فاهتم بجانبين أساسيين

أولهما التربية العقلية والروحية و السلوكية للفرد، فبذلك يحقق من خلاله الأمن السلوكي من كل الممارسات والسلوكيات الدخيلة على المجتمع الجزائري، سواء كان ذلك إبان الاستعمار الفرنسي أو بعده، والجانب الثاني نشر والدعوة إلى المعتقدات الصحيحة التي جاء بها الإسلام، وبذلك تطلع "**ابن باديس**" للمحافظة على الأمن الفكري المستمر عبر الأجيال، الذي يمكن الفرد الجزائري من تصحيح ذاته وحمايتها من الذوبان في ثقافة الآخر، أي الثقافات الأجنبية وبالتحديد الثقافة الفرنسية التي لا تنسجم مع مرجعيته الأصيلة ولا تخدم حضارته [19]، في إشارة منه أن السبيل الوحيد للأمن الفكري والسلوكي هو الرجوع إلى المعتقدات الصحيحة النيرة التي جاء بها الرسول الكريم.

واعتمد "**ابن باديس**" على وسيلة مهمة وخاصة في وقتنا الحالي، ألا وهي الإعلام المتمثلة في الصحافة، فكانت أحد الجوانب المهمة من كفاحه، وبما أن الإعلام وسيلة أساسية لتثقيف المواطن وتكوين الرأي العام، فإن الجمعية قد جعل من أهدافها، أيضاً الاستماتة في النضال من أجل إلغاء مرسوم . شوطان . الذي جعل اللغة العربية أجنبية في الجزائر[20]، إذ أنشأ المنتقد والشهاب، فزاد عليها الدعوة إلى التحرير السياسي، إذا كان الاستعمار الفرنسي يزعم أنه يحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية في العالم، فقد جعل من صحيفته ميدانًا رحبًا لإبادة هذا الزعم، فهو يذكر مواطنيه بفظائعه المنكرة في وطنه الجزائر، وأنه أي المستعمر لم يحمل رسالة الحرية والحضارة والإنسانية كما يزعم[21].

ويوضح "**مصطفى محمد حميداتو**"مستدلا ببعض كلام"**ابن باديس**"فيقول: لاحظ "**ابن باديس**" أن المناهج والبرامج المتبعة في زمانه، ليست في حالة اعتدال، سواء في صورتها أو مادتها، لإهمالها كثيرًا من المبادئ الخالدة التي جاء بها الإسلام، فهو يرى أنه لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، ويرى ضرورة إعداد المناهج المناسبة لتنشئة أجيال المستقبل وتربيتها التربية الصالحة، موضحًا بأن أبناءنا هم رجال المستقبل، وإهمالهم قضاء على الأمة إذ يسوسها أمثالهم، ويحكم في مصائرها أشباههم، ولنكن واثقين أننا نبني على الماء ما لم نعدّ الأبناء بعدّة الخُلُق الفاضل، والأدب الديني الصحيح، ويحرّض "**ابن باديس**" رجال التربية في عصره على ضرورة إعادة النظر في البرامج التربوية، فيتساءل مستنكرًا: فهل نعدّ منهجًا ينبت به أبناؤنا نباتًا حسنًا فيكون رجاؤنا عظيمًا، أم نستمر على ما نحن عليه فيضيع الرجاء؟ ، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، ويعني بالتعليم الذي يكون به المسلم عالمًا من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناسُ دينهم، ويقتدون به فيه[22].

فأنشأ جمعية العلماء المسلمين وكان من أهدافها تعليم اللغة العربية، لأجل ذلك سعت الجمعية، بشتى الوسائل، لحمل الإدارة الاستعمارية على إلغاء القرارات التعسفية، التي ظلت تعرقل التعليم العربي واستبدالها بقانون يكون للأمة رأي فيه، ويساعد على إيجاد الظروف الملائمة لنشر اللغة العربية بكل حرية قصد ترقية المجتمع الجزائري، فاختارت جمعية العلماء الجزائريين إقامة النوادي عبر مختلف أنحاء الوطن[23].

وبالإضافة إلى مساندتها للحركات الإصلاحية والاستقلالية والطلابية في الأقطار المغاربية، فقد هاجمت صحفها الاستعمار في ليبيا، حيث كتب

البشير الإبراهيمي** عدة مقالات بعنوان ليبيا وموقعها منا[24].

لقد كان"**ابن باديس**" رجلا مفكرا مدركا لما لوسائل الإعلام من أهمية في نشر الفكر والمعتقد الصحيح، الذي يساهم في الحفاظ على أمن الأفراد والمجتمع الجزائري من الفكر والسلوك المدمر، الذي لا يحقق سوى الانتكاس والعودة لتدهور إلى الحقبات المظلمة، فالأمن الفكري والسلوكي يتحولا إلى الارتقاء الفكري والسلوكي معا تحسبا لتطلع لدرجة الكمال البشري، ويكون "**ابن باديس**" قد توصل إلى أن المحافظة على المجتمع الجزائري تكون بالمحافظة على المعتقدات الدينية الصحيحة التي بها يتحقق الأمن الفكري التربوي والسلوكي.

7. واقع الأمن الفكري والسلوكي في المجتمع الجزائري:

فالأمن إذن مفهوم قديم جديد معا، وهو وإن كان قديما بنفس المعنى وارتباطه بالجانب العقائدي استنادا لقوله تعالى(**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**) (سورة قريش الآية 3. 4)، إلا أن مفهومه المعاصر أصبح يكتسي دلالة أعمق في واقع محفوف بالمخاطر، وإذا كان الأمن الوطني أو القومي كما يحدده المعجم السياسي هو تأمين سلامة الدولة ضد الأخطار الخارجية أو الداخلية المحدقة بها والتي قد تؤدي إلى الفوضى داخلية أو سيطرة أجنبية، فإن الأمن الفكري والسلوكي يوازي هذا المفهوم، فالأمن الفكري والسلوكي هو الحفاظ على الهوية الوطنية بشتى الوسائل الثقافية والتربوية و التنموية وتحسس المواطنين بها، وجعلهم يؤمنون بأنها القاعدة الأساسية لبناء استقلالهم وتحصين شخصيتهم من الاغتراب والاستلاب والتفكك أو التمزق، إن أفضل تخطيط على القريب والبعيد لهو تعميق الثقافة الإسلامية باعتبارها سياجا مانعا يحول من كل انحراف أو تفكك[25].

ويوضح "**إميل دوركايم**" بأن المجتمع يستند في توازنه، على قواعد، وعلى نواميس، وعلى قيم، توحي إلى الوعي باللحمة الحيوية، التي تهدف لاجتناب الفوضى بين الأفراد، ومن اليسير ملاحظة ذلك الأثر في المجتمع، الذي يهيمن فيه ما يسميه "**دوركايم**" بالتضامن الميكانيكي، فالأفراد منخرطون في تكتلات اجتماعية منتظمة، تجنح نحو الانسجام في سلوكياتها، ونحو التشارك الإلزامي في قيم جامعة[26].

فالجزائر كأي دولة عربية مسلمة مرت بظروف كادت أن تعصف بعروبتها وإسلامها المعتدل الذي يوافق الكتاب الله والسنة رسوله ε، ففي هذه البلاد الطيبة وفي فترة معينة من الزمن ظهرت فئتان كلا منهما تدعي أنها هي الفئة التي ستحقق الأمن الفكري والسلوكي، وبذلك التحقيق يؤدي إلى التطور الحضاري للمجتمع الجزائري، ففئة خرجت عن المعتقدات الدينية الإسلامية وتأثرت بالاختراق الثقافي والاجتماعي والتربوي والتعليمي والديني وراحت تدعو إلى التحرر من قيود الدين والمجتمع على الطريقة الغربية والانسلاخ من الهوية الإسلامية والعربية لتدخل في مضمار الثقافات الغربية، فأصبحت هذه الفئة تنطق بلغة الفكر الغربي، وهناك فئة ثانية تنبذ كل ما هو فكر غربي وكل ماهو خارج عن الدين بكل ايجابيته وسلبياته، وتسيطر بفكرها على عدد لا بأس به من أفراد هذا المجتمع بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين ومبادئه السمحاء، ويرجع هذا إلى عدم فهم الدين كما فهمه السلف الصالح، مما أدى إلى ظهور التطرف الفكري والسلوكي من كلا الجانبين وانعكس ذلك على أمن المجتمع الجزائري ككل.

فنتيجة عدم إدراك لما للمعتقدات من أثر على الأفراد، والمغالطة لهذا الدور الريادي، حلت الفوضى والتدهور الاجتماعي وعدم الاستقرار الأمني، غير أنه بفضل الرجوع إلى العقيدة الصحيحة وانتشار الإعلام الإسلامي الذي كان له دور كبير في تثقيف المجتمع بأسره، فاتجهت الحكومة الجزائرية إلى انتهاج منهج جديد في مجال التربية والتعليم، وركزت عليه لما له من دور في حماية الأفراد منذ الصغر، ووظفت كل الجهود لتحسين نوعية التعليم وأصدرت قانون يلازم أولياء الأمور بإجبارية التعلم وخاصة فئة الأطفال وتبقى هذه الجهود غير كافية مقارنة بالدول الإسلامية الأخرى.

لذلك فالدين هو قاعدة ورابطة تشد أزر المجتمع، ويوحي بقوة الاعتقاد وجود مجموعة من القيم المتعالية اجتماعيا، ووفقها يتأسس نظام الموجودات، ومن هنا تكمن أهمية الطقوس ودورها في بث اليقظة الدائمة في هذا الواعي الجماعي الأصيل، فيحتاج المجتمع إلى الدين لفرض قواعد سير نظامه بين الأفراد، وهنا ندرك دواعي إقرار عالم اجتماع لائكي والقريب من الأفكار الاشتراكية في عصره، مثل "**إميل دوركايم**" في مؤلفاته الأخيرة إجمالا، كيف أن الدين يمكن أن يلعب وظيفة بارزة لدعم التماسك الاجتماعي[27].

ويتضح ذلك من خلال الدراسة الميدانية التي أجريت على مدى دعم التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي للقيم الإسلامية، فالوقت المخصص لتدريس مادة التربية الإسلامية غير كاف، ومضمون المادة غير فعال، بحيث لا يسهم في تحريك فعاليات العقيدة الإسلامية، والطرائق البيداغوجية المتبعة في تدريس غير فعالة، كما أن سلوك المعلم لا يدعم عملية تمكن القيم العربية الإسلامية في أغلب الأحيان[28]، فتوصل الباحث "**كمال الدين العقون**" في دراسته الميدانية سنة 2010م، التي أجريت على 623 تلميذا، تتراوح أعمارهم ما بين 17.14 سنة، 396 منهم إناثا و227 ذكورا، تهدف إلى التعرف على الشخص أو الأشخاص الذين يمثلون المثل الأعلى بالنسبة إليهم، ومن ثم يتخذونهم قدوة لهم، تم تطبيق المثل الأعلى للشباب، وهو يتكون من أربعة أبعاد: بعد الشخصيات الدينية، بعد الشخصيات العامة، بعد الشخصيات ذات السلطة والنفوذ، بعد الشخصيات الأسرية، ونركز هنا على البعد الأول الذي له علاقة مع موضوع مقالتنا، فالبعد الذي احتل المرتبة الأولى هو بعد الشخصيات الدينية بنسبة 84,46%، بحيث أن التلاميذ يعتبرون شخصية الأنبياء والرسل، وشخصية العلماء والدعاة نماذج تمثل المثل الأعلى، غير أن الباحث يرى أن هناك تناقضا بين اختيارات التلاميذ والممارسات الفعلية التي لا علاقة لها البتة بهذه الشخصيات، فالتناقض بين القول والفعل، وبين الاتجاهات، يعني حسب" **ليون فستنجر L.Festinger** " أن هناك تنافرا معرفيا **Dissonance Cognitive** [29]، فهذا التناقض المعرفي راجع إلى مؤسسات التنشئة الاجتماعية، خاصة في المجتمعات التي لا تنسجم فيه فلسفة المجتمع مع مؤسساته عموما، ومؤسسات التنشئة الاجتماعية خصوصا[30]، وبتعبير "**ميرتون R.Merton**"فإن سلامة التنظيم في المجتمع تستلزم قيام التكامل والانسجام بين الأهداف الثقافية ووسائل تحقيقها، ويتضح ذلك عندما يتطلب البناء الثقافي من السلوك والاتجاهات متطلبات يعوقها البناء الاجتماعي، فتحدث ضغوط تعمل على انهيار المعايير، وإذا انهارت المعايير سادت الفوضى وحدث التمزق وضعف الانتماء[31].

قد يصعب تحقيق أمن فكري أو سلوكي بصورة مطلقة في أي مجتمع معاصر، فالمجتمع إما أن

يكون متخلفا يستورد حاجاته المعرفية والفنية والثقافية بأكثر مما ينتجها، وإما أن يكون مجتمعا متقدما ناضب الثقافة من القيم الأخلاقية والتوازن النفسي، عاجزا عن حل إشكالاته الحضارية والفكرية، غير أن الثقافة الإسلامية التي حققت عبر تاريخها الطويل ذلك التوازن القائم على التكامل بين الوحي والعقل بتحقيق الذات وجعلها متجاوبة مع السنن الكونية، واعتبار ذلك من أعظم مظاهر العبادة، وتحقيق كرامة الإنسان، فهي الجديرة بتحقيق هذا الأمن المنشود وتحصين هوية الإنسان من كل تلوث واستلاب واغتراب[32].

خاتمـة

إن المجتمعات وبخاصة المجتمعات العربية تعيش أزمة في قدرتها للحفاظ على الأمن الفكري والسلوكي للأفراد نظرا لتعرضها لكم هائل من الثقافات المختلفة، فالعصر الحالي يشهد تداخلا لثقافات عديدة سواء كانت هذه الثقافات نافعة أو ضارة، ولعل أسوأ ثقافة هي الثقافة المعتقد الفاسد التي تطرح على مختلف الوسائل من فضائيات وعالم الانترنت والصحف المكتوبة... الخ في ظل التطور التكنولوجي، مما يؤدي بالفرد العربي المسلم للضياع في وسط هذه الحقول من الثقافات، إن لم تكن هناك عقيدة تضبطه وتوجهه إلى تحقيق أمنه الفكري والسلوكي من هذا الغزو، فكل مجتمع يعرف بعقيدته ودينه وأسلوب تفكيره العقدي والسلوكي، لأنه من خلالها تظهر هويته وتقوى شوكته ويتحقق أمنه في شتى الميادين والمجالات، ولا يعني هذا إهمال الجانب المعرفي والعلمي والتطور التكنولوجي بل المزج بين الأمرين، بحيث يمكن المحافظة على المعتقدات والمبادئ والقيم الإسلامية في ظل تطور القدرة المعرفية لمواكبة العصر، وبذلك يتحقق الأمن الفكري والسلوكي دون المساس بأحد الجانبين.

الهوامش

1- سميح دغيم، **أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، موسوعة الأديان السماوية والوضعية**، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995م، ط1، ص7. بتصرف يسير.

2- محمد أبو يحي وراشد شهوان وعبد الرحمان الكيلاني واحمد العوايشة ويوسف غيظان، **الثقافة الإسلامية(ثقافة المسلم وتحديات العصر)**، دار المناهج، عمان ، 2001م، ط1، ص ص276.277.

3- نوفل عبد الرزاق، **دين وفكر**، دار الشروق، القاهرة ،ط1989،1م، ص14.

4- الدميري مصطفي إبراهيم، **الصحافة في ضوء الإسلام**، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1988م، ص ص86.87.

5- إجلال خليفة، **الصحافة** ، ص9، نقلا عن الدميري مصطفي إبراهيم، المرجع السابق، ص ص86.87.

6- فاروق إسماعيل، **تأثير الإسلام على الوثنية دارسة انثربولوجية**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1987م، ص51.

7- نبيل توفيق السمالوطي، **الدين والبناء الاجتماعي**، ج2، دار الشروق، ص57. وكذلك: محمد عثمان الخشت، **الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم**. دار قباء، ص 41.وانظر كذلك:

Conrad phillip kottak, **anthropology the exploration of human diversity**, eighth edition a division of mc graw-hill companies, America, 2000, PP450-474.

8- محمد شهاب، **رواد علم الاجتماع**، دار النشر الالكتروني، مصر، ص24. بتصرف يسير.

9- كمال التابعي وعلى المكاوي،**علم الاجتماع العام**، دار النشر الالكتروني، ص 163.

10- سابينو أكوافيفا وإنزو باتشي، **علم الاجتماع الديني الإشكالات والسياقات**، ترجمة عز الدين عناية، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي،2011م، ص37 .

11- محمد شهاب، مرجع سابق، ص28 .

12- أكبر أحمد، **نحو علم الإنسان الإسلامي**، ترجمة عبد الغني خلف الله، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية،1990م، ط1، ص80 .

13- يحي هويدي، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**. ج1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965 م، ص15 .

14- Alfred Bel , **La Religion musulmane en Berberie**-Esquisse d' histoire et de Sociologie religieuse, Tome1, L Etablissment et developpement de L' islam en Berberie du vll au xxe siécle, Paris,1938, pp750.

نقلا عن يحي هويدي مرجع السابق، ص16.

15-Rene basset: **Recherches sur la religion des berbére,** revue histoire des religions,1910, pp11. بتصرف يسير نقلا عن يحي هويدي مرجع السابق، ص17.

16- بوعزيز يحي، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ط1، ص10.

17- جاك فريمو، **فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران**، ترجمة هاشم صالح، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، قبرص،1991م، ط1، ص15. بتصرف يسير.

18- بوعزيز يحي، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، مرجع سابق، ص ص301.303 . بتصرف يسير.

* **عبد الحميد بن باديس**(11 من ربيع الآخِر 1307 هـ= 5 من ديسمبر 1889م): من أعلام الإصلاح الجزائريين، ولد "عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس" المعروف بعبد الحميد بن باديس في بمدينة قسنطينة، وتعلّم مبادئ العربية والعلوم الإسلامية على يد الشيخ "أحمد أبو حمدان الونيسي"، ثم سافر إلى تونس في سنة (1326هـ= 1908م) ، وتلقى العلوم الإسلامية على جماعة من أكابر علمائه، وبعد أربع سنوات قضاها ابن باديس في تحصيل العلم بكل جدّ ونشاط، تخرج في سنة (1330هـ= 1912م) حاملاً شهادة "التطويع" ، واستثمر علمه في الإصلاح. (**المعجم الجامع في تراجم العلماء و طلبة العلم المعاصرين** أعضاء ملتقى أهل الحديث كتاب الكتروني، ص148) وتوفي بقسنطينة، وله تفسير القرآن الكريم .(عمر رضا كحالة. **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج5، ص 105).

19- أبو خليل شوقي، **الإسلام وحركات التحرر العربية**، دار الرشيد، دمشق، 1976م، ط1، ص87. بتصرف يسير.

20- **محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر. ج1، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999م**، ص203. بتصرف.

21- محمد بهي الدين سالم، **ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير**، دار الشروق، مصر، 1999م، ط1، ص53.

22- مصطفى محمد حميداتو، **عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية**، سلسلة كتب الأمة، مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص 93. بتصرف.

23- **محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر. مرجع سابق**، ص203.

****البشير الإبراهيمي** (1306 هـ - 1385 هـ = 1889 - 1965 م): محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي مجاهد جزائري، من كبار العلماء. انتخب رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. (خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 6، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ط 5، ص54).

24- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث في تاريخ الجزائر**، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ط1، ص151.

25- محمد الكتاني، **من المنظور الإسلامي**، دار الثقافة، دار البيضاء، 1989م، ط1، ص267. بتصرف يسير.

26- سابينو أكوافيفا وإنزو باتشي، مرجع سابق، ص ص 34.33 .

27- المرجع نفسه، ص ص39.38 . بتصرف يسير.

28- العقون ك، **مساهمة الإصلاحات التربوية في الجزائر في تحقيق الانتماء**، مجلة دراسات نفسية وتربوية ، العدد التاسع، جامعة البليدة، جوان 2012م، ص24.

29- المرجع نفسه، ص ص 28.27 .

30- العقون كمال الدين، **التربية بالقدوة في الإسلام ومبدأ الحرية عند المربين المحدثين**، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)،جامعة الجزائر ،2010م، ص 262 ،نقلا عن العقون ك، مرجع سابق، ص 28.

31- خضر لطيفة إبراهيم، **دور التعليم في تعزيز الانتماء**،القاهرة، علم الكتاب،2000م، ص 137 ،نقلا عن العقون ك، **مساهمة الإصلاحات التربوية في الجزائر في تحقيق الانتماء**، مرجع سابق، ص 28 .

32- محمد الكتاني، مرجع سابق، ص ص273.272.

المراجع

***القرآن الكريم، ﴿كتاب الله﴾.**

1- أبو يحي وراشد شهوان وعبد الرحمان الكيلاني وأحمد العوايشة ويوسف غيظان، **الثقافة الإسلامية(ثقافة المسلم وتحديات العصر)**، دار المناهج، عمان، 2001م، ط1.

2- أبو خليل شوقي، **الإسلام وحركات التحرر العربية**، دار الرشيد، دمشق، 1976م، ط1.

3- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث في تاريخ الجزائر**، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ط1.

4- إسماعيل احمد ياغي، **تاريخ العالم العربي المعاصر**، مكتبة العبيكان، السعودية، 2000م، ط1 .

5- أكبر أحمد، **نحو علم الإنسان الإسلامي**، ترجمة عبد الغني خلف الله،المعهد العالي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية،1990م، ط1.

6- جاك فريمو، **فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران**، ترجمة هاشم صالح، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، قبرص،1991م، ط1.

7- خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 6، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ط5.

8- سميح دغيم، **أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، موسوعة الأديان السماوية والوضعية**، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995م، ط1.

9- سابينو أكوافيفا وإنزو باتشي، **علم الاجتماع الديني الإشكالات والسياقات**، ترجمة عز الدين عناية، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي،2011م.

10- كمال الدين العقون، **مساهمة الإصلاحات التربوية في الجزائر في تحقيق الانتماء**، مجلة دراسات نفسية وتربوية ، العدد التاسع، جامعة البليدة، جوان 2012م.

11- كمال التابعي وعلى المكاوي، **علم الاجتماع العام**، دار النشر الالكتروني، مصر.

12- محمد بهي الدين سالم، **ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير**، دار الشروق،مصر، 1999م، ط1.

13- محمد شهاب، **رواد علم الاجتماع**، دار النشر الالكتروني، مصر.

14- محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999م.

15- مصطفى محمد حميداتو، **عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية**، سلسلة كتب الأمة، مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

16- مصطفي إبراهيم الدميري، **الصحافة في ضوء الإسلام**، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1988م.

17- محمد الكتاني، **من المنظور الإسلامي**، دار الثقافة، دار البيضاء، 1989م، ط1.

18- نبيل توفيق السمالوطي، **الدين والبناء الاجتماعي**،ج2، دار الشروق.

19- نوفل عبد الرزاق، **دين وفكر**، دار الشروق، القاهرة ، 1989 م، ط1.

20- يحي هويدي، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، ج1، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1965 م.

21- يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م، ط1.